المساجد والمشاعر

في العصر الجاهلي

من آثار الاب لامنس

القسم الاول

٢

قلنا ، في البحث الاول من هذا القسم ، ان جميع الآيات التي تذكر « المساجد » بصيغة الجمع ، تشير الى منطقة الحرم في العهد السابق لفتح مكة. هذا ما يُستنتج من مقابلة النصوص في القرآن ، ومن الجدل بين النبي ومشركي قُريش ، ارباب هذه « المساجد » اذ ذاك. ولا يخفى ان مظاهر هذا الجدل ترقى الى زمن وجود النبي في المدينة حيث كان يُعدّ الحملة على مكة ، ويُعدّ رجاله من مهاجرين وانصار للقيام بهذه الحملة . فاذا أيّدنا ذلك ، فلندع المحدثين والمفسرين يتخيّلون وجود مسجد وحيد ، هو الكعبة ، يدعم نظريتهم في التوحيد الابراهيمي. بيد ان هذه النظرية تنسينا سائر الذكريات الدينية في مكة المشركة. وهي عديدة مهمّة في قاعدة تهامة ، وكثيرًا ما نازعت « البيت العتيق » في التبجلة والإكرام .

وقد لا نخطئ اذا شبّهنا مكة بأورشليم من جهة انها كانت تحوي عدة معابد او اماكن مقدّسة . فهناك « الأنصاب » و« الاركان » و« المنازل » و« المواقف » و« الجمرات » . وكلها مذكورة بصيغة الجمع في النصوص القديمة. ولا يبرّر استعمال هذه الصيغة القولُ بانها أُجريت مجرى صيغة « المساجد » في القرآن . وهذا زهير بن ابي سلمى يُقسم « بالمنازل من مِنى »[1] . ومثله الشاعر الطائي قيس بن جروة القائل :

وأُقسم جهرًا بالمنازل من مِنى

(١) Ahlwardt, *Ancient poets* 14,6

وليس اكثر ورودًا في أيمان الجاهليين من القَسَم بالأنصاب المشربة بدماء الضحايا ، على نحو قول الشاعر :

فأقسم بالذي قد كان ربّي ، وأنصاب لذى الجمرات مُرِّ [1]

أوَ لا يدلّ هذا على تعدّد تلك الأنصاب والمواقف المقدّسة التي كان يُذبح عليها ويُضحّى . ويسير ذكرها الديني في الشعر . ولا شكّ في ان تلك الجبلة الغالبة على هذه الحفلات المُشركة ، وما كانت تنتج من فوضى واضطراب اثارت اشمئزاز النبي فمثّلت له صورة القيامة « يومَ يخرجون من الاجداث سراعاً ، كأنهم الى نصب يوفضون . »[2]

وكان المؤمنون بهذه الانصاب يقومون بالطواف الطقسي حول الجمرات[3] ، ويرمونها ، اي يضيفون اليها حجرًا او اكثر ، كما كانوا يرمون قبور جدودهم المشهورين .[4] وبديهيٌّ ان الأيمان بها يدل على صفتها الدينيّة ، كما ان ورودها بصيغة الجمع يشير الى تعدّدها .[5] وسنذكر ما يؤيّد قولنا من اسانيد ، على رغم قلّة معلوماتنا بشأن الميثولوجية القرشية خاصة والحجازية عامّة .

III

ولا بدَّ من القول اولًا ان لا وجه للشبه بين الكعبة والهياكل الدينية المعروفة ، بل لا تجوز المقابلة بينها وبين البناء العادي . ان في قرانا وضياعنا كثيرًا من المعابد الحقيرة في مساحتها وهندستها . الّا انه يظلّ لها صفة الفن البنائي .

---

١) ابن هشام : السيرة ، ٥٢٤ — وهو لا يضمن صحة نسبة القطعة . انما يكفيه ان تُعدّ « من اصحّ اشعار اهل بدر » . ولا شكّ في انها صُنعت — ان كانت مصنوعة — على مثال مقاطع جاهلية أدخل فيها تعابير ذات صبغة قديمة ، كما في استعمال « كان » بصيغة الماضي حيث يقتضي المقام الحاضر . ولا يخفى ان القرآن يستعمل احيانًا هذه الظاهرة التركيبية بوضع الماضي مكان الحاضر .

٢) القرآن ٧٠ [المعارج] ٤٣

٣) Welhausen, *Reste*, 111

٤) راجع بحثنا في « الحجارة المؤلّهة » في « المشرق » ٣٧ [١٩٣٩]

٥) قابل بما في السيرة ، ١٧٢ ، من ابيات منحولة الى ابي طالب .

اما الكعبة فلم تكن على شيء من ذلك. وقد بقيت مدة طويلة دون سقف. فهي اشبه بجدار منها ببناء، بجدار جُعل إطاراً للحجر الأسود. وكان هذا الحجر اهمّ معبودات قريش، ولكنه لم يكن وحيدها[1]. ولعلّه كان قطعةً باقية من الحجر المؤلّه القديم، من «بيت» القبيلة النقّال، المحمول في الحفلات والطوافات، كما هو الحال في «المَجدا» النبطيّة. وكانت الكعبة، مع الحجر الملتصق بها — وقد يُسمّى ايضاً الجدار والجِدْر[2] — تكوّن مركز هذه الحفلات الدينيّة في مكة. حتى اصبح كل ما فيها موضوعاً للإكرام والعبادة، على نحو القول المأثور: «ليس من البيت شيء مهجور»، اي «ليس من اركانه شيء مهجور».[3] وعلى هذا، رأينا اتقياء المشركين، قبل الإصلاح الذي قام به النبي، يمرّون شفاههم وايديهم على جهات الكعبة الاربع، وعلى كل ما برز من الحجارة المثبتة في الجدران او الملقاة في الزوايا، والتي تركتها رموزاً وآثاراً الهية اجيالُ القدماء من سكّان مكة.

III

هل خُصّت الكعبة دائماً بهذه الميزة الرئيسية في تاريخ مكة الديني؟

اقرّ باني لا ارى برهاناً كافياً لتأييد هذه الرئاسة، على الرغم مما يبذله التفسير الرسمي من جهود في هذا السبيل، بل بسبب هذه الجهود المحاولة اقرار الاعتقاد العام بالرئاسة المذكورة. وواضحٌ ان منسكَي الصفا والمروة قاوما مدة طويلة كل الحملات التي وُجّهت الى المناسك القرشية القديمة. ذلك انهما كانا يحتلّان مركزاً مهمّاً في تاريخ المدينة. ولعلّهما نازعا الكعبة تأثيرَها[4]، بل لعلّهما

---

١) راجع، في ما خصّ عصرنا الحاضر،
Burckhardt, *Voyages*, I, 183; Snouck Hurgronje, *Mekka*, I, 16

٢) البخاري: الصحيح (Krehl) ١: ٤٠٠، ٤٠١

٣) ابن حنبل: المسند ٢: ٩٤—٩٥، ٩٨؛ البخاري: الصحيح ١: ٤٠٦. وهي اقوال كثيراً ما نُسبت الى معاوية، على اننا نشكّ، دون شك، العقيدة القرشية القديمة. وراجع في عبادة «الاركان»، بحثنا في «الحجارة المؤلّهة».

٤) كما نازعها هذا التأثير منسك عرفة، راجع Wellhausen, *Reste*, 92

تفرّقا عليها مدة ، كما كانا يرتفعان فوقها في المركز الجغرافي. وقد يظهر ان بعض المؤمنين النيّر من غير القرشيين ، في حاشية النبي ، كانوا يرغبون في تجريد هذين المنسكين الوثنيّين من صفتهما الدينية[1] على الاقل ، ان لم يمكن تخريبهما تماماً[2]. ذلك ان الطواف[3] بهما ، في الإسلام ، كان يولي اولئك المؤمنين شكوكاً مشروعة ، اذ انّ الطواف يفرض وجود « بيت » اي حجر موّله ، وبالتالي منسك مناسك ا « بيت الله » اي الكعبة . بيد ان النبي رأى من الحكمة ان يتردّد في النزول على رغبة أنصاره المؤمنين ، اذ انّ قومه من قريش لم يكونوا مستعدّين بعد لمثل هذا الإصلاح ، فانتظر مدة ، ثم ترك الأمر لله ، ليتدخّل بسلطته العالية ، ويقدّم عليهما « البيت » ، على أنهما من شعائر الله . « ان الصفا والمروة من شعائر الله . » . فمن حجّ البيت او اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما. ومن تطوّع خيرًا فان الله شاكر عليم . »[4]

وهكذا لم ينفر زعماء قريش، وقد كان لبعضهم نوع من السدانة على منسكي الصفا والمروة[5] ، ولم يكونوا قد أشربوا بعد روح التوحيد المطلق الذي جاء به النبي .

III

اذا ما غربل النقدُ بعضَ نصوص مجاميع الصحيح ، كصحيح مسلم مثلاً ، توصّل الى نتائج غريبة بشأن نظريّة المسجد الوحيد . من ذلك ان في منسكي الصفا والمروة كان يقوم الناس بالشعائر نفسها التي يقومون بها في البيت « العتيق » .

---

١) كما رغبوا في إلغاء العُمرة ، راجع مسلم : الصحيح ، ١ : ٤٦٨

٢) الترمذي : الصحيح (طبعة الهند) ٢ : ١٢١

٣) قد يُبدل « بالطواف » كلمة « سعي » على انها اخف وطأة ؛ الترمذي ١ : ١٨١ ؛ مسلم ١ : ٤٨٩–٤٩٠ ؛ وقد يستعملون في الكلام عن الصفا والمروة « طاف بـ » و« طاف بين » ؛ النسائي : السُنَن ٢ : ٢٠ ، ٢١ ، ٣٧

٤) القرآن ٢ [البقرة] ١٥٢

٥) ورد ذكرهما في شعر متحول مطبوع على غرار الشعر الجاهلي اورده ابن هشام على انه معاصر للهجرة ، السيرة ١٧٣ ، ٢١٧

فكانوا يطوفون سبع مرّات ويقصّون شعورهم ، ويذبحون الاضاحي[1] .

اما الطواف بالصفا والمروة ، فقد ظل مألوفاً غير محظور في الاسلام بدليل الآية السابقة ؛ واما قصّ الشعر فقد قام به النبي نفسه[2] ؛ واما التضحية فغريضة نراها أهملت شيئاً فشيئاً في الكعبة[3] . فهل خاف قدماء القرشيين ان يحوّلوا مسلخاً فناء البيت حيث كان لكل قوم منهم نادٍ معروف . اما بعد الفتح ، فغدا الناس يضحّون حول البيت ، وحول الصفا والمروة . بيد ان التقليد والتفسير الرسميّين رأيا في إشراك الصفا والمروة مع « البيت » ما يمسّ نظرية توحيد المعبد الابراهيمي فاخذا بالجهود العديدة المتتابعة في سبيل الحطّ من خطر المنسكين القرشيّين المشركين . ولما لم يكن ممكناً انكار الشعائر التي قام به النبي نفسه في الصفا والمروة ، اخذ ارباب الحديث ، بواسطة طرقهم المعروفة من تمديد « الروايات » في إدخال بعض التحفّظات ، يعملون على تقليل اهمية هذه الشعائر . فهم تارةً يبدلون « بالطواف » « السعي »[4] المتعلّق اصلاً بالعُمرة ، وهو اخفّ خطراً في نظرهم ؛ وحيناً يحوّلون الى طواف واحد الطوافات السبعة التي قام بها النبي[5] . على ان همّهم الأكبر ان يجعلوا النبي يتجه نحو الكعبة ، في قيامه بالشعائر الإكرامية للصفا والمروة[6] . وهكذا يعتقدون بانهم يوجّهون ذاك الإكرام ، الذي قام به النبي جرياً على عادة القرشيين القدماء ، الى « البيت » الوحيد في زعمهم ،

---

١) مسلم : ك . م . ١ : ٨٨ ، ٤٦٨ ، ٤٨١ ، ٤٨٥

٢) حنبل : المسند ٤ : ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ؛ الترمذي : ك . م . ١ : ١٨١

٣) اما تضحية عبد المطلب فزعم لا سند له . انظر اقوال ابن هشام نفسه ، في السيرة ص ١٠٠ . ومن الحقّ ان القرآن (٥ [المائدة] ٩٦) ؛ و٢٢ [الحجّ] ٣٤) يغرض التضحية في الكعبة . على اني لا ارى النبيّ قام بهذا الامر .

٤) وكثيراً ما اقرّ المحدّثون احتياطاً الترادف المطلق بين « طاف » و« سعى » ، البخاري : صحيح السنّة ١ : ١٣٣ ؛ مسلم : ك . م . ١ : ٤٨٥

٥) ابن سعد : الطبقات ٢ : ١٣٥ ، ٨٨ ؛ مسلم : ك . م . ١ : ٤٩٠

٦) وعلى هذا ، اصبح من ضروريات الحج ان يتّجه المطوّف بالصفا نحو الكعبة ؛ راجع الشافعي : كتاب الام ٢ : ١٧٨ ؛ والطالب Gaudefroy-Demombynes, *Le pèlerinage à la Mekke*, 227

فيحوّلونه عن تلك « البيوت » او الحجارة المؤلّهة الخاصّة.[1]

كان في مكة الجاهلية عدد كبير من المواقف ، والمنازل ، والمناسك الثنوية ، من تلك الحجارة او « البيوت » ، تُكرم في عبادة القرشيين الرسمية ولا سيما في اثناء العُمرة. وقد رأينا اشهرهما الصفا والمروة يظلّ لهما ذكر في الاسلام . اما ما بقي فقد عمل مؤرّخو المكيّين على طمس ذكره ، لأن وجوده لا يوافق نظريتهم في مسجد الكعبة ، ولأنّ القرآن لم يَرَ ان يذكر. ولا يخفى ان القرآن والحديث لا يمكن ان يكونا مصدرين مختلفين لمعلوماتنا عن نشأة الإسلام وما تقدّمها. انما كلاهما يعتنيان بالتقاط نفسها ، فيأتي الحديث متوسّعاً بما اوجز القرآن في ذكره.

وقد اشرت في بحثي عن « الحجارة المؤلّهة وعبادتها عند الجاهليين » الى تلك المواكب الدينية في مكة الجاهلية. فتخيّلتها طائفة من حيّ الى حي ، كما يفعل الحجّاج في عصرنا بقيادة المُطَوِّف. وكان الطواف الاصيل في مكة معروفاً بالعُمرة ، وهي تقع ، على الأغلب ، في شهر رجب . وكانوا يتجنّبون ان يوافق موعدها مواسم الحجّ السنوي .

كان الموكب يتوقّف في طريقه لدى المساجد ، والأنصاب ، والأركان ، والحجارة ، وسائر تلك المعبودات القديمة التي تركتها ماثلةً القبائلُ المتعاقبة على احتلال المنطقة منذ القدم كجرهم ، وخُزاعة ، حتى قريش ، فيوليها الإكرام وفقاً لاهمّيتها[2]. حتى اذا وصل امام المناسك المشهورة ، من امثال تلك التي تعلق بها اليوم ذكريات اسلامية ، جدّد الطواف والسعي بين حجرين او اكثر كما يفعل مثلاً في منسك الصفا والمروة المزدوج. وكأنه يودّ اشراكها او اشراكها جميعاً في عبادته. ويختم الطواف[3] « بالوقوف » في المنحر اي محلّ التضحية ؛ وكأن

---

١) مسلم : ك. م. ١ : ٤٦٨ ؛ ٢ : ٨٧ – ويذكر الطبري : التفسير ٢ : ٣٦ ، حجرين مكرّمين في الصفا والمروة .

٢) ولا يزال ، حتى يومنا هذا ، عدد من الحجارة المكرّمة في مكة ، راجع ابن بطوطة : رحلته ١ : ٢٠٦ ; *Chroniken*, Wüst., III, 46 ; Burckhardt, *Voyages*, I, 167-168 ; Snouck Hurgronje, *Mekk. Feste*, 82.

٣) وقد نرى بدل « طاف » « دار » به ، ومنه المطوّف ، والمُدوّر ؛ اطلب عامر بن

افراد الموكب جميعهم يشتركون في هذا القربان ، وهو اسمى مظاهر العبادة.

هذه الطقوس والشعائر المتعددة لم يكن الشعب ليفهم تماماً اصلها وتطورها، على الاقل في العصر الذي ندرسها فيه[1]. ولعلها نتيجة شعائر عديدة تلخص تاريخ المدينة الديني ، منذ ان وصلها ، في العصور القديمة ، اوائل الاسماعيليين، فنزلوا حول بئر زمزم . اما قبيل الهجرة فيظهر ان اكثر انصاب الأحياء المختلفة ، وبيوتها ومساجدها ، واركانها ، اخذت تتضاءل بالنسبة للكعبة المحتوية على « بيت » الحيّ الارستوقراطي ، او « قريش البطحاء » ، سُمّي كذلك تميزاً له عن الاحياء المتفرقة في النواحي او « قريش الظواهر ». وكانت الكعبة تتاخم بناء يقبل نحوها براجته[2] يُسمّى « دار الندوة ». وهو بناء يصعب تحديده وبيان الغاية منه . الّا انه متعلّق بذكرى قُصيّ ، جدّ الأُسَر النبيلة في مكة ، التي كثيراً ما اعتصبت وحدها مجاهرةً بانفرادها عن « قريش الظواهر » و« الاحلاف ».[3] وحول الكعبة ، في تلك الفسحة الضيقة ، كانت تردحم « الاندية » و« المجالس » المشهورة في قريش ؛ يجتمع فيها كبار القبيلة واصحاب القول فيها من امثال ابي سفيان ، وابي لهب ، وابي جهل، فيتناقشون في شؤون تلك « الجمهورية التجارية ». ولم يكن وجودهم في جوار المسجد[4] دليلاً على تقواهم . انما هو الدليل على ان هذا الفناء كان يتصف بصفة دقيقة التحديد اذ يجمع بين الحرم والسوق. فهو مسجد ومجلس معاً .

بيد ان افضلية الكعبة او سيادتها ، اذا صحّ التعبير ، تعزّزت منذ ان

الطفيل : ديوانه (طبعة Lyall) ١١ : ٩٠ ، ثم المقطع ٨ ؛ ابن هشام : السيرة ١٤٣ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٥٥ ؛ امرؤ القيس : المعلقة ، ٥٨

١) اني اخالف ، في ما خصّ فهم « العُسرة » ، رأي Snouck Hurgronje, *Feest*, 80

٢) راجع ابن سعد : الطبقات ١ : ٦٩ ؛ ابن جبير : رحلته (de Goeje) ١٨١

٣) راجع كتابنا *La Mecque*, p. 50-62

٤) في الحِجْر مثلاً ، اسد الغابة ٤ : ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ١٤٩ . وتعود الى ذكر هذا . راجع ايضاً مسلم : ك. م. ٣ : ٦١ ؛ ابن هشام : ك. م. ٤٧٣ ؛ الاغاني ٤ : ١٨-١٩ ، ١٦ : ٦٥ ؛ اسد الغابة ٣ : ٤٦ ؛ البخاري : الصحيح (اسطانبول) ١ : ٦٥ ؛ Lammens, *La Mecque*, 175, 226.

ركز فيها الحجر الأسود ، وكان « بيتاً » نقالاً في اصله ، فاحتلّ مركزاً خاصاً الى جنب غيره من الأنصاب ، ضمن إطار الكعبة . ولم يلبث ، وهو بيت قريش البطحاء ، ان كسف رواء غيره من التذكارات الدينية القديمة بفضل قربه من بئر زمزم . فناقت اهميته اهميّة الحجر ، والحطيم[1] ، ومقام ابراهيم[2] — وهو « بيت » تُرك بجوار الكعبة — وبالتالي سائر الحجارة المتفرّقة في احياء المدينة وضواحيها . الّا ان هذه المساجد لم تُهجر تماماً ، وان ضعف تأثيرها ، بل ظلّ العرب يولونها الإكرام فيحجّون اليها ويطوفون بها . وهذا ما يحيّر ارباب النظرية الرسمية في وحدة المسجد الابراهيمي ، فيعملون على تلافيه بمختلف الطرق ، كما تقدّم . ولا نرى حاجة الى القول اننا نهمل تلك الاسطورة المضطربة الاساس التي تجعل من الكعبة هيكلاً شاملاً لمعبودات الجزيرة يجمع داخل بنائه وفي فنائه الضيق ٣٦٠ صنماً او نصباً[3] .

III

ويجدر بنا ، في ذكر المناسك القرشية ، ان نفرد اشارة خاصة للمرتفعات والجبال المقدّسة ، وهي وافرة العدد[4] ، اشهرها حِرَاء[5] ، وابو قُبَيس ، وثَبِير ، وغيرها . وكثيراً ما كان في اعلى الجبل بناء الى جنب شجرة مقدّسة . اما في الإسلام فقد

---

١) الازرقي (Wüstenfeld) ٢٦٧

٢) أرّ ينبغي ان نضيف الحَزْوَرَة ، « وهو موضع بلي البيت » ، كما في البكري : معجم ما استعجم ٢٧٨ ، ٢٧٦ ؛ ابن الاثير : النهاية ١ : ٢٢٤ . وقد ذكره الشعر الجاهلي ، ياقوت : المعجم (Wüst.) ٢ : ٢٦٢ ؛ Gaudefroy-Demombynes, *Pèlerinage*, 72, n.5 وهو يدوّنها « Hazûra »

٣) مسلم : ك . م . ٢ : ٨٥ ، ٨٦ وفيه الروايتان : صنم ونصب ؛ اسد الغابة ١ : ٢٠٠ ، وهو يذكر اصناماً من الرصاص ! وقد آمن Gaudefroy - Demombynes, *op. cit.*, 43, 56 بهذه الاسطورة مع شيء من التحفّظ .

٤) Snouck Hurgronje, *Chroniken*, Wüst., 447-448 etc. . واطلب في موقعها ، *Mekka* I, 22 . وقابل بما في السمهودي : وفاء الوفاء ٢ : ١٠٩

٥) على فرسخ من مكة ، ابن بطوطة : رحلته ١ : ٢٢٧ . ويلقب اليوم « بجبل النور » ، وهو مخروط الشكل Burckhardt, *Voyages*, I, 79, 236, n. 1 . ويزعمون ان عبد المطلب لمن غزاة الحبش من اعلى قنّه ؛ ابن سعد : الطبقات ١ : ٥٦ ؛ الجاحظ : الحيوان ٧ : ٦٠

خصَّ بعض هذه المناسك الجبلية بذكريات عن حياة النبي وآله . وأهمل سائرها فأسدل عليها النسيان شيئاً فشيئاً . واما في العصور القديمة فكانت هذه القمم تشارك سائر المساجد والمناسك في احترام الشعب واكرامه . لنا على ذلك شهادة الشعراء ، اذ يحلفون بها كما يحلفون بالبيت العتيق نفسه . قال احدهم :

فاني والذي حجّت قريشٌ بمكته ، وما نُحِتت حِراءُ[1]

وكانوا يحلفون بحِراء ويدوّنون أيمانهم في اسفل المعاهدات المعقودة بين القبائل ليضمنوا المحافظة عليها ، فلا يجفر المتعاقدون ذممهم . ويذكر الشاعر خُفاف بن نُدبة السُّلَمي ، مع ثبير ، « وُكني حِراء »[2] اي الحجرين المؤلهين فيه ، ولينتبه لاستعمال المثنّى . وقد كان لقُنّة حِراء ميزة خاصّة فكان يرقى اليها كبار القرشيين ليلقوا فيها اللصات الخافلة على اعداء مكّة ، كما فعل عبد المطلب في لعنه غزاة الحبش .[3] وكأنها قمة الجلبوع[4] لبني اسرائيل ، على فرق ان حِراء يظهر اجدب واوحش من جبل السامرة ، خلافاً لمزاعم سپرنجر الذي يحوّل حِراء الى مصيف يصعد اليه « من اهل مكة مَن لا تمكّنه ثروته من الذهاب الى الطائف . »[5] ومهما يكن من أمر فقد اجمع المحدّثون وارباب التفسير على قداسته . وقد يحلّون محلّه جبل ثبير ، وجبل ثور . وكأنهم يلهون بهذه الاسماء لهوَهم المعتاد بالأرقام . حتى ان التقليد المدني ينقل جبل ثور الى المدينة فيقيمه في بلد الأنصار .[6]

على قمة حِراء الجرداء المشرفة على اوديته المنقفرة الموحشة ، وفي الكهوف المتخرقة في جوانبه الشوهاء ، مكوّنة مشاهد خليقة باثارة الرؤى والتخيّلات على

---

١) البكري : ك . م . ٢٧٣ ؛ اليعقوبي : تاريخه ١ : ٢٧٩ ، وهو يكتب « حرى » بالقصر ؛ الاغاني ١٦ : ٦٤ ؛ ابن جبير : ك . م . ١١٢

٢) الاغاني ١٦ : ١٤٢

٣) ابن سعد : الطبقات ١ : ٥٦

٤) اطلب سفر الملوك الثاني ١ : ٢١

٥) راجع كتابنا *Taif*, 49-50

٦) اطلب مناقشة في ذلك ، في السمهودي : وفاء الوفاء ١ : ٦٤-٦٥

قول سپرنجر[1] ، كان بعض القرشيين في الجاهلية يندفعون في سبيل التحنُّث[2] . وما التحنُّث ؟ هي لفظة قديمة يُفرض فيها الدلالة على طريقة في السلوك الى الزهد ، على نوع من التنسك العربي لا يُحدَّد تماماً ، على مجموعة من اعمال التوبة والرياضة الروحية تنافي ما نعرفه من طبيعة اولئك التجّار الآخذة بالواقع الماذي الحسّي قبل كل شيء ، الضيّقة الصدر بمظاهر العبادة والتقوى ، ولا سيما اذا طالت.[3] ومهما يكن من أمر فان هذه الاوصاف الروحانية كان من شأنها ان توهّب الناس للاعتقاد بالاندفاع الديني المنسوب الى « الحُمس » ، ثم بوجود الحنفاء ودورهم الديني . ولا يهمّنا الآن مناقشة هذه الامور والبحث في تاريخيتها . انما المهمّ انها — تاريخيةً كانت ام موضوعة — تدلّنا الدلالة الواضحة على اهمية جبل حِراء الطقسية او النسكية في « دين » قريش القديم . الى هذا الجبل كان يلجأ الحنيف الغامض الشخصية زيد بن عمرو فيعيش منفردًا ، هارباً من المشركين[4] . واليه لجأ محمد منصرفاً الى « الجوار » ؛ ولا يخفى ما تفيده هذه اللفظة من وجود مكان مقدّس يجاوره . وقد قام النبي بهذه الزيارات ، و« جاور » مختلياً في رياضة روحية ؛ اذ كان لا يزال على دين قريش القديم ، بشهادة « السيرة » نفسها . فنستفيد دليلًا جديدًا على صفة حِراء المقدسة زمن الشرك ، وعلى قيمة تلك الشعائر في دين قريش الجاهلي . وقد ظلّ النبي ، في الاسلام ، على تكريمه لجبل حِراء ، فقاد اليه مرّاتٍ اصحابه « العشرة المبشرة ».[5]

---

١) Sprenger, *Mohammad*, I, 296-297

٢) البلاذري : انساب الأشراف (مخطوطة باريس) ص ٦٣ (وجه) ؛ الاغاني ١٦ : ٦٤ (ان تكن اللفظة صحيحة النسبة) وفيها يدلّ حِراء على جبل من الجبال دون تخصيص، والشاهد قوله : « من سهلها وحِراتها » . وهناك زعم بان عبد المطلب كان اول من قام بالتحنُّث في حِراء ، وذلك في شهر رمضان (كذا !) ؛ البلاذري : ك . م . ٤٢ (قفا) ؛ ابن هشام : السيرة ١٥٣

٣) راجع مع ذلك Wensinck, *Arabic New Year and the Feast of Tabernacles*, p. 8 etc.

٤) اسد الغابة ٣ : ٢٢٨ ؛ ابن هشام : السيرة ١٥٣

٥) الاغاني ٨ : ٨٧ ؛ الترمذي ٢ : ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٧ ؛ ابو داود : السُنن ٢ : ١٦٧ ؛

وهناك جبل مقدّس يحتلّ مركزاً خاصاً في تاريخ مكة[1] ، حتى انه قد يفوق شهرةً جبل حراء . هو ابو قبيس المُشرف على مكة ، وعلى اكمة الصفا المتصلة به بواسطة طريق تصعد بدرج . هذا الدرج ، الضخم التقاطيع ، الآخذ من المنحدر الشرقي ، اقصرُه ، وقد انخفضت مراقيه تحت اقدام الحجّاج الصاعدين[2] اليه مواكب مواكب . وكان الكثيرون من هؤلاء الحجّاج لا يرضون الّا بان يُتمّوا « مسعاهم » الى الصفا والمروة ، بزيارة ابي قُبيس ، وبطوافهم حول « بيته » الخاص ، اي الركن او الحجر المكرّم فيه[3] . ومن ميزات ابي قُبيس الخاصّة كونه صالحاً لدعاء « الاستسقاء » . فكان الناس يصعدون اليه ، زمن الجدب ، فيستمطرون الغيث على بلادهم[4] . وذلك ان الصلوات والأدعية كانت مستجابة على قمّته ، ولا سيما ادعية المظلومين الذين كانوا يقصدونه فيستشهدونه ربّ « بيته » على احقادهم مستعينين بقدرته الغلّابة .[5] ويتردّد اسم ابي قبيس في رؤى عاتكة الهاشمية ، اخت العبّاس ، عندما اخذت تتكهّن بانكسار بدر[6] . اما الغاية من إقحام هذه الرؤيا التكهّنية في رواية العبّاسيين للسيرة فصرفُ النظر عن الموقف الشائن الذي وقفه العبّاس ، جدّ خلفاء بغداد ، في تلك المؤقعة

اسد الغابة ٢ : ١٩٨ ، ٢٠٨ ؛ ٣ : ٢٧٨ Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, 139 وهو يخلط بين «العشرة المبشّرة» و«الصحابة العشرة الاولين» . وبعض المبشّرة كعُمر مثلاً ، لم يكونوا من قدماء الصحابة . ويستفاد من اسد الغابة ٣ : ٢٠٣ ان النبي ، حتى بعد اهتدائه ، اشترك في موكب حجّ يرئسه المشركون .

١) الازرقي (Wüstenf.) ٤٧٧ : الاصطخري : جغرافيته ١٦ ؛ المقدسي : جغرافيته ٧٤ ؛ ياقوت : معجم البلدان (الطبعة المصرية) ١ : ١٥١ ؛ ابن جبير : ك . م . ١٠٨

٢) ابن سعد : الطبقات ١ : ١٢

٣) وقد يكون فيه اكثر من ركن . قابل بما ورد في البيت المذكور آنفاً : « وما جمعت حراء » . واطلب في ابن سعد : الطبقات ١ : ١٢ ، ذكر الصلات القديمة بين ابي قبيس والحجر الأسود .

٤) ابن سعد : ك . م . ١ : ٥٤ ؛ البلاذري : ك . م . ٤٨ (قفا) ؛ اسد الغابة ٥ : ٤٥٤-٤٥٥

٥) الاغاني ١٦ : ٦٦ ، ٧٠ ، ويضع التقليد الاسلامي في ابي قبيس قبور عدد من الانبياء (*Chronik* (W.), III, 442-443) ، اليعقوبي : تاريخه ٢ : ١٦

٦) الاغاني ٤ : ١٨ ؛ الواقدي (Kremer) ٢٢-٢٣

الشهيرة. ويرد اخيرًا ذكر ابي قبيس في لائحة « المشاهد » ، او الاماكن المقدسة ، التي يزورها الحجّاج المسلمون[1]. وقد لا تكون هذه اللائحة تامّة ؛ الّا انها تذكر عددًا من مواقف العُمرة القرشية القديمة ، تلك التي كان يقوم بها الدّ خصوم النبي.

وفي الحوليّات المكية القديمة ان ابا قُبيس « اول جبل على الارض ... حين مادت »[2]، تكوّن من ارتفاع قشرة الأرض، قبل ان تثبت وتتماسك. ويقول ارباب الحديث وعلماء التفسير ، كي يبرّروا ذاك الإكرام الذي ظلّ المسلمون يولونه ابا قبيس ، ان هذا الجبل آوى الحجر الاسود زمن الطوفان ، فحفظه في احشائه[3]. وقد لا نخطئ اذا قلنا أنّ حجرًا اسود ، مماثلًا لحجر الكعبة ، كان يُكرَم في الزمن القديم على قمة الجبل المذكور . أوَ لا يجوز الظنّ ان الحجر الأسود نفسه — وقد كان « بيتاً » نقّالًا في اول الأمر ، كما تقدّم — انزلته قريش من ابي قبيس.[4] ومهما يكن من أمر ، فان التقليد الاسلامي يطلق على ابي قبيس لقب « الأمين » لامانته في حفظ الحجر ، ويضع فيه قبر آدم ، خاتمًا محاولاته في إسلام الجبل المذكور[5]، وتعفية ذكريات الشرك فيه ، وفي غيره من تلك المرتفعات المقدّسة التي كانت لا تزال تلفت انظار المسلمين فتجذبهم اليها جرياً على القيام بالشعائر الوطنية التقليدية .

لا شك في انه كان بناء على قمة ابي قبيس . على ان الرواة لا يذكرون صفته ، ولا الغاية منه ، ولا اشكاله الهندسية.[6] ولا يزى هذه التفاصيل تهمّهم ، ان لم نقل انها تضايقهم. فهل كان البناء يشبه الكعبة ؛ أو لم يكن فيه حجارة

---

١) المقدسي: جغرافيته ١٠٣

٢) الازرقي (W.) ٤٧٨

٣) الازرقي (W.) ٤٧٧ ؛ Dozy, *Die Israeliten zu Mekka*, 12 . وفي ابن سعد: الطبقات ١ : ١٣ ، ١٧ ، رواية غريبة لهذا الحديث .

٤) راجع ابن سعد: الطبقات ، في المواضع المذكورة .

٥) ابن جبير : رحلته ١٠٨ ، ابن بطوطة: الرحلة ١ : ٢٣٦ — ولا ذكر لابي قبيس في سيرة ابن هشام .

٦) الازرقي ٤٧٨ ؛ قطب الدين في *Chroniken*, W. III, 442

مكرَّمة نُقلت الى الكعبة في ما بعد ؟ لقد يستنتج شيء من هذا من مرويات التقليد . ولا نرى الامر غريباً ، ولا سيما في العصور القديمة ، اذ كانت منطقة الحرم معرَّضة للسيول المتكاثرة[1] التي كانت تجتاحها مرةً بعد مرة ، فتجرف « بطن مكّة »[2] ، وتهدم الكعبة نفسها . وحتى بعد الاسلام نرى ابا قُبيس يبدو اقدس المرتفعات القديمة المقدّسة بجوار مكة . فيستفيد من قربه الى الكعبة ، ومن سهولة الصعود اليه ، بالنسبة الى جبل حِراء الصعب المرتقى . ويظلّ المسلمون يعيدون فيه الشعائر التي جروا عليها منذ الجاهلية[3] . يعزّز ذلك وجود « البناء » المذكور الذي بقي قائماً مدة عشرات السنين بعد الهجرة .

ونعرف من اشهر زوّار ابي قبيس ، في الإسلام ، عمر بن ابي ربيعة ، المستقلّ برأيه لمخزوميّته ، والمائل الى التقليد الفني بشاعريته .[4] يرتقي الجبل ، برفقة بعض المخزوميين ، وهو بلباس الإحرام ، لباس الحفلات الدينية الخاصّ ، فيلفظ ، على القمة ، بيتاً غرِساً حالفاً « وربّ هذه البنية ! » وليس من شكّ في معنى هذا القسم الواضح . الّا ان التقليد الاسلامي لا يرضى به ، ولا يدع عمر ابن ابي ربيعة يحلف « بالبنية » القائمة على قمة ابي قبيس . بل يجعل الشاعر يرقى الجبل بلباس الإحرام ، ليتّجه بنظره نحو الكعبة[5] ، ويحلف ببيتها هي لا ببنية ابي قبيس القريبة منه .[6] ذلك لأن اليمين بغير « البيت العتيق » لا توافق نظرية وحدة المسجد الإبراهيمي التي أشرنا اليها . امّا نحن ، وقد رأينا الدلائل الوافرة

---

١) اطلب كتابنا في *La Mecque*, p. 103

٢) التعبير في القرآن ٤٨ [الفتح] ٢٤ . يزعم المفسّرون ان هذا في جوار الحُدَيبية ، مسلم : ك . م ٣٠ : ١٠٣-١٠٢ . وهو تفسير لا مبرّر له . وواضح ان السورة تشير الى معركة في مكة بين المسلمين والمشركين ، معركة لم تذكرها « السيرة » ، ولم يبحث فيها Noldeke-Schwally, *Geschichte*, I, 216

٣) *Chroniken*, W , III, 442, 443

٤) اطلب كيف قلّد معلّقة امرئ القيس : Sal. Gandz, *Die Mu'allqa des Imrul-qais*, 122-125, dans les *Sitzungsberichte* de l'Acad. des sciences deVienne, 1913

٥) كما فعل النبي نفسه من على اكمة الصفا ، في نظر التقليد . مسلم : ك . م ١ : ٤٦٨

٦) اطلب تفصيل المشهد في الاغاني ١ : ٢٦

على ضعف هذه النظريّة ، فلا نرى ما يمنع ان نفهم فهماً عادياً عمل الشاعر الظاهر ، غير محتاج الى تأويل او تخريج . والّا فما الذي يدفعه الى ارتقاء مشارف ابي قبيس ليستشهد من تلك المسافة ، ومن فوق أكمة الصفا ، ببنية الكعبة ؟

وعلى قمة ابي قبيس ، شهدنا المغنّي ابن سريج يترنّم ، ليلاً ، بمرثاته المؤثّرة التي ختمها بقتلى قريش في معركة الحرّة[1] ، على عهد يزيد :

يا عين جودي بالدموع السفاح ، وابكي على قتلى قريش البطاح ![2]

ولا نستغرب اختيار المكان والزمان من قبل رجل فنّان كابن سريج . ولكن ما القول في زيارة عبدالله بن الزبير لابي قبيس ، في تلك الساعة ؛ وهو « الخليفة القوّام الصوّام » الذي لم يُثره على خلافة يزيد الّا السهر على مصالح الدين ، كما يزعم ؟[3] حتى اذا سمع ، في جوف الليل ، ترنّمات المغنّي المكّي ، تخيّل هواتف الجنّ تتداعى في ابي قبيس[4] .

وفي عهد المروانيين ، تجرّأ القوم على التخلّص من تأثير هذه الذكريات الجاهلية الموروثة من عهد الشرك ، ففتحوا في جوانب ابي قُبيس مقلعاً للحجارة . هو ما تذكره رواية بحاجة الى تأكيد .[5]

III

وتجاوز ذكر الجبال المقدّسة ، في جوار مكة ، الى الشعر المنحول نفسه ، فاستغلّ واضعوه تلك المشاعر والمناسك المرتفعة . من ذلك ان ابن هشام اورد في « السيرة » بيتاً منسوباً الى ابي طالب يذكر فيه صعود الحجاج وتزولهم على مراقي حِراء ، وثور ، وثبير[6] .

---

١) اطلب كتابنا في *Yazīd*, 237-257

٢) الاغاني ١ : ٩٦

٣) راجع *Yazīd*, 182 ؛ مسلم : ك . م . ٢ : ٢٧٥

٤) الاغاني ١ : ١٠٤ ، ٨ : ٥٨ . ولنذكر ان للجن سجدًا في مكة يُدعى « مسجد الجنّ » . وقد ورد ذكر هاتف على ابي قبيس في السهودي : ك . م . ١ : ١٧١ ، ١٧٣ ؛ اسد الغابة ٢ : ٢٨٣

٥) الاغاني ٤ : ١٥٢

٦) ابن هشام : السيرة ١٧٣ ؛ ياقوت : ك . م . ٣ : ٢٦

وقد استند واضع هذا الشعر الى تعابير قديمة ، والفاظ غريبة ، كان من شأنها ، في نظره ، ان تبرّر قدم القطعة فتوهم جاهليّتها . وهو عمل طالما عهدناه في نحل الشعر القديم عامّة ، والشعر المستشهد به في السيرة خاصّة . حتى ان ابن هشام نفسه ، وهو اقرب رواة « السيرة » الى الاخلاص العلمي ، كان يساوره الشكّ احياناً في تزييفيّة هذه الشواهد ، فيشير الى شكّه بكلمة لطيفة او بتلميح دقيق ينبّه ذهن المطالع دون ان يجرح امانة سابقه ابن اسحق .

ولنعد الى جبل ثبير فنرى ان له المركز الخاصّ في الاحتفال بالحجّ العربي القديم . ذلك ان قائد تلك الجموع الصاخبة كان يراقب قمة الجبل ، حتى اذا شاهد عليها اشعة الشمس الاولى — وهو الحدث المعبَّر عنه بالقول السائر : « اشرق ثبير » — أشار بالسير فتحرّك الموكب .[1] فثبير اذًا جبل مقدّس . يؤيّد هذا وجود اسمه في الأيمان ، وفي معاهدات التحالف .[2]

وقد يذكّرنا جبل ثبير ، في بعض نصوص مجموعات الصحيح ، بطابور الانجيل ، او جبل الطور ؛ اذ نراه يضطرب على قواعده تحت خطى محمد صاعدًا اليه ، مع خلفائه الثلاثة الأوّلين ، او مع « العشرة المبشرة ».[3] فنسأل : وما الذي كان يدفعهم الى ارتقاء هذا الجبل ؟ اليس السبب نفسه الذي كان يدعو مؤمني الجاهلية الى ارتقائه ؟ وطبيعيٌّ ان جُمّاع الحديث ورواة الاخبار التقليدية لم يكونوا ليتصوّروا هذه النتيجة . انما كان المهمّ في نظرهم ان يدّعوا للاسلام

---

١) ابو داود : السُنن ١ : ١٩٤ ، وكل مجموعات « الصحيح » . وراجع ، بشأن التعبير : « أشرق ثبير » ، الهمداني : صفة جزيرة العرب (D. H. Müller) ٢٦٠ ؛ ابن الاثير : النهاية ٣ : ١٧٥

٢) اليعقوبي : تاريخه ١ : ٢٧٩ ، ٢ : ١٦

٣) ياقوت : ك . م . ٢ : ٦-٧ ؛ البكري : ك . م . ٣١٣ ، ٣٢٣-٣٢٣ ؛ الترمذي : ك . م . ٢ : ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٧ . وفي بعض النصوص ان هذه الاعجوبة حصلت على جبل حراء ؛ وعيّنها اهل المدينة على جبل أُحد — وهو من الجبال المقدّسة كذلك (اطلب مسلم : ك . م . ٢ : ٢٢٩) ، والترمذي : في المحل المذكور) . بيد ان تعيين موضع ثبير يظلّ عرضة للمناقشة . ومنهم من يذكر عدة جبال باسم ثبير Burkhardt, *op. cit.* I, 386 ; *Chroniken*, W. III, 78-79 اما شنوك هورغرونيه فلا يذكر ثبيرًا في *Mekka*, I, 22

بجميع المناسك القرشية . « انا المساجد لله » هذا ما حاولوه في ثبير . وهذا ما رأيناهم يحاولونه في حراء ، وابي قُبيس . ولم يكن التقليد لينوّع طرقه واساليبه.

وبعد وفاة النبي ، رأينا ارملته عائشة تصعد مراقي ثبير المقفرة لتنصرف الى « المجاورة » او التنسّك تائقةً بنوع من الرياضة الروحية.[1] وهو حَدَث يُستغرب ، لأول وهلة ، بالنسبة الى امرأة معروفة بانغماسها في اضطرابات السياسة المعاصرة - على اننا نستفيد منه لفظة « المجاورة »[2] الدالة على وجود بناء مقدّس يجاوره المتنسّك ، فيُستجاب دعاؤه[3]. وقد يكون هناك على القمة الجرداء نصب ضخم يمثل « البيت » القديم ، وهو ما وصف بقولهم : « حجر كأنه قبة »[4] وبالقرب منه شجرة وحيدة منفردة تُتمّ ما نعرفه من مظاهر المساجد الجاهلية في تهامة[5]. ونذكر اخيرًا ان ثبيرًا كان يتمتع بالحصانة المتعلقة بمناطق الحرم[6].

❧

سمعنا ابا طالب يحلف بجبل ثور[7]، في بيت رجّحنا انه منحول . وسواء أكان منحولًا أم صحيحًا ، فان اليمين لا تفقد اهميتها . اذ ان النحل يدلّ على كثرة هذه الأيمان في الشعر ، كما ان الأيمان تدلّ على حرمة او قدسية الاشياء المتخذة موضوعاً لليمين ، وفي النصّ الذي بين ايدينا ، تدلّ على قدسيّة جبل ثور . على انه يظهر اقلّ مرتفعات قريش حرمةً قدسيّة ، هذا اذا اخذنا بالدعاوة المنظّمة حول غيره من الجبال المقدسة في جوار مكة . ويُستنتج من قول ابن جبير ان الحجر المكرّم على قمة

١) راجع Wensinck, *op. cit.* p. 13-17

٢) البخاري : الصحيح (Kremer) ١ : ٤٠٨

٣) *Chroniken*, W. III, 451

٤) ياقوت : ك . م . ٦ : ٢٣٠ ؛ البكري : ك . م . ٧٠٤

٥) ياقوت : ك . م . ٦ : ٢٤٩ . ويظهر ان الحُجّاج ، بعد القيام بشعائر منى ، كانوا يزورون ثبيرًا ، اطلب بيتًا غامضًا في ابن دريد : الاشتقاق ١٧٣

٦) ابن هشام : ك . م . ١٦ (وهو منحول ولكنه قديم) . وفي التعبير الشعري : حرّك ثبيرًا وحراء » يعني : حاول المستحيل : الاغاني ١٦ : ١٤٣

٧) وللشاعر ابن زُبير ، من رجال القرن الاول للهجرة ، بيت يحلف فيه بجبل ثبير ؛ نجد فيه القالب نفسه المنسوب الى ابي طالب ؛ الاغاني ٨ : ٢٩

هذا الجبل كان على شكل عمود[1]. وكان من فضل ثور أنه آوى النبي في هجرته مع ابي بكر. فكان من عادة النبي ان يلجأ اليه منفرداً[2]، بعض الأحيان، كما كان ينفرد في جبل حراء، قبل الهجرة.[3] اما ما يهمنا خاصة في روايات الحديث المتكاثرة حول هذه العبادات او الزيارات التقوية فالدلالة على الاهمية الدينية التي كان يوليها قدماء العرب هذه الجبال والمرتفعات. هو ما قصدنا الاشارة اليه، وهو ما دلّ عليه ارباب الحديث والتفسير وعلماء السُنة — عن غير قصد — في محاولاتهم نفي هذه الصفات الجاهلية عن المعابد المذكورة بجعلها مناسك الدين الاسلامي، تذكر بزيارات النبي وغيره من آل البيت وكبار الصحابة.

وقد ظلّ النبي يقوم بهذه الزيارات التقوية في اثناء سكنه المدينة. الّا انه، في العشر السنوات الاخيرة من حياته، كانت بدانته تحول بينه وبين السير الطويل[4]، فضلاً عن انه لم يكن يرغب في كثرة التنقلات[5]. بيد اننا نراه على جبل أُحد. هذا ان لم تكن عصبية الأنصار قد دفعتهم الى إشراك جبلهم — وهو من القسم المقدّسة كذلك — بفضيلة زيارة النبيّ له. وكان من ذكريات معركة أُحد ان لفتت اذهان المسلمين عن قمة الجبل المكرّمة في الجاهلية، الى سفحه حيث جعل التقليد قبور حمزة ورفاقه من شهداء ذلك اليوم المشهور. فكان اذا رجع النبي من أسفاره، او غزواته، وشاهد عن بعد قمة أُحد المخروطة، خاطبه كما يخاطب الكائن الحيّ فقال: «هذا جبل يحبّنا ونحبّه!»[6]

---

١) ابن جبير: الرحلة ١١٧

٢) الازرقي: ك. م. ٤٢٧–٤٢٨، وفيه وصف الطريق التي اتبعها النبي بين حراء وثور، او ابي ثور (كذا) كما يسميه ابن جبير (ص ١١٦). ويقع ثور في جنوبي مكة على قول Snouck Hugronje, *Makka*, I, 22

٣) اني افهم «الاعتكاف في المساجد» (القرآن ٢ [البقرة] ١٨٢) بمعنى الحجّ او العُمرة في مناسك الجبال خاصّة.

٤) قابل بما في ابن الاثير: النهاية، في مادة: «بدن»؛ وكتابنا *Mo'tawia*, 398

٥) البخاري: ك. م. ١: ٤٥، ١٩؛ مسلم: ك. م. ٢: ١٤٥

٦) مسلم: ك. م. ١: ٥٢٣، ٥٣٠، وفي سائر مجموعات «الصحيح». السمهودي: ك. م. ٣: ١٠٧، ١٠٨ وفيها روايات مختلفة؛ اسد الغابة ٣: ٣٧١

وهو هتاف غريب ان كان أُحد لا يذكّر الّا بذاك الانكسار المؤثّر !

ولنختم هذا البحث في القمم المقدّسة بلاحظة للجاحظ ينبّه فيها الى ان العرب الذين يطلقون على اولادهم اسماء جبل وطور لا يسمّونهم باعلام الجبال من امثال أُحد ، وثبير ، وأجا ، وسلمى ، ورضوى وما اشبه . ومع انهم كانوا يزورون رؤوس هذه الجبال كلها خرجوا من مخاريبهم[1] . أوَ كان ذلك احتراماً لصفة هذه الجبال المقدّسة ؟ أوَ يكونون قد احترموها كما احترموا آلهتهم فلم يطلقوا اسماءها على اولادهم ؟[2] على اننا رأينا ، في بعض النصوص ، كنية « ابي أجا » ثم اسم « سلمى » ، وهو جبل طي الثاني.[3] وهناك رجل خزاعي من مشركي الجاهلية كان اسمه عبد ثور[4] . فاذا كان ثور يدلّ على الجبل المقدس ، كما ارجح ، حقّ لنا ان نسأل : ولِمَ لا نرى اسماء المرتفعات المقدّسة تكثر في تركيب الاسماء المسندة الى الآلهة !

---

١) راجع كتاب الحيوان ١ : ١٥٨

٢) ومع ذلك فقد رأينا اسم « هُبل » في نسب زهير بن جناب الكلبي . على انه نسب موضوع .

٣) الاغاني ١١ : ٦٥ ؛ الجاحظ : ك . م . ١ : ١٥٩

٤) اسد الغابة ١ : ٤٩ . ولينتبه الى ان المضاف اليه غير مُعرّف خلافاً لما ورد مثلاً في الاسم : « عبد الأسد »